

زيارة الأحبة عند الشعراء

الحياة كفاح، هذا ما يقول به كثير من الناس،
ويضربون الأمثلة على ذلك ليعبروا عن وجهة نظرهم،
ويؤكدوها. ويذكرون أن الإنسان إذا أراد أن يأكل،
فعلية أن يبحث عن طعامه بشتى الطرق ليجد ما يسد به
رمقه، وإن أراد أن يلبس عليه أن يكّد حتى يجد ما
يلبسه، وحتى في المسائل العاطفية إذا أراد أن يجد له
محبوبة، كان عليه أن يسعى ليل نهار بحثاً عنها، بل
عليه أيضاً أن يتسلح إن كان من أهل العصور القديمة،
بالسيف والنار، والحديد والظلام ليحصل على تلك
الحبيبة ليتأنس معها. وقد سبقه أناس كثيرون في هذا
الكفاح، وبذلوا الكثير في سبيل تحقيق غاياتهم ومن
هؤلاء الشاعر الكبير أبو الطيب المتنبي. فهو رغم سعة
حكيمته، وجسارته في الحروب، وعلمه الغزير في كل
فن، لم يجد بداً من أن يكافح للوصول إلى حبيبته،
وكان يقول لنفسه:

كم زورة لك في الأعراب خافية
أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وأثنى وبياض الصبح يغري بي

فالمتنبي الذي خاض غمار الفلوات، وتوغل في
ميادين القتال مع سيف الدولة غير هتّاب ولا وجل
خشي زيارة الحبيبة، فكان يذهب إليها متخفياً، وبعد
هبوط الظلام، ورقاد أهل الحي، فالمتنبي على إقدامه
وشجاعته في الحروب، لم يستطع أن يزور محبوبته في
وضع النهار، أو غير متخفّ بل اضطر إلى الذهاب إليها
ليلاً متلصصاً وربما كانت فرائصه ترتعد خوفاً من أن
يضبط. وكما كانت زورة الذئب لأعراب البادية في
الخفاء، كانت زيارة المتنبي لمحبوبته أدعى لذلك الخفاء
من زورة الذئب الذي كان يزور الأحياء العربية بغرض
التهام الأطفال في غفلة من ذويهم. أما المتنبي وعترة
وامرؤ القيس وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم، فقد كانت
لهم مأرب أخرى من تلك الزيارات فهذا عترة يبننا عن
زيارته التي أرادها أن تكون زيارة ناجحة، فقال:

فبعثت جاريتي فقلت لها اذهبي
وتجسّسي أخبارها لي واعلمي

قالت رأيت من الأعادي غيرة

والشاة ممكنة لمن هو مرتمي

فمن كان يظن أن عنتره سيخاف ويسعى إلى
الاختفاء وراء جاريته؟ ولعله جعلها تقسم له بأنها لن
تفشي سره، وستذهب وتتجسس له، وربما تأتي إليه
بالخبر اليقين، وتقول له سرّاً في نفسها: «نعم، اذهب
إليها يا جبان» ثم تتركه يصطاد في الماء العكر.

ولا يمكن للمرء أن يصدق أن عنتره سيخاف،
وأنه جبان في ميدان الحب، رغم شجاعته في ساحة
الحرب. إن عنتره لم يخرج عن كونه إنساناً يخشى على
صاحبه حديث الناس فيغدو جباناً أمام ألسنة الناس التي
لا ترحم ولن ترحم سمعة حبيته إذا ما اكتشف الأمر.

وكان المحبون على أيام عنتره يذهبون لزيارة
حبيباتهم وهم مدججون بالسلاح، فهم يحملون الزرد
والسيوف الصقيلة، والرماح الطويلة، ثم بعد ذلك قد
يأخذ المحب معه بعض الحراس إن أمكن. ونجد أن
امراً القيس مثلاً، كان من أولئك الذين يصفون حالتهم
هذه عند ذهابهم إلى المحبوبة بقوله:

سموتُ إليها بعدما نام أهلها

سُمّو حباب الماء حالاً على حال

فجبنه واضح من بداية المغامرة لأنه انتظر حتى نام أهلها، ثم سار خفية إليها كأنه فقاقيع الماء ترتفع وتهبط، وتزحف وتسبح دون أن تحدث أي صوت. ولا شك أن فرائصه كانت ترتعد وترتجف وهو يطلع التلال، أو ينزل الوهاد ليصل إليها. ومن يدري فلربما كان هناك غيره من المحبين الذين وقعوا في حب فتيات أخريات في نفس الحي، وكانوا يفعلون فعله وهم خائفون. وربما وقع أحدهم على الآخر في ذلك الظلام الدامس فأخذ يصيح: «الحقوني، أنقذوني، هذا ليس أنا!» والذي يحيرني في تلك الزيارات أين كانت كلاب الحي، وهل نبحت أم لم تنبح، وهل أيقظت أهل الحي من الرجال، أم كانوا هم أنفسهم في زيارات مماثلة.

والجبان لا يمكن بالطبع أن يعترف بجبنه وهذا ما فعله امرؤ القيس حين ضبط متلبساً بالجريمة. وذلك بعد أن عثر على محبوبته في خبائها، وربما دلته عليه بعطر خاص تستعمله دون غيرها. أو ربما بمعزة تمأمئ طوال الليل، أو تضرب بأقدامها في إناء من الصفيح كان فيه أكلها فأخذت ترفسه بأقدامها الجرداء، وحوافرها الحادة، من حين لآخر طالبة المزيد من الطعام، وهي علامة بين الزائر والمحبوبة ليستدل على خبائها في تلك الليلة المظلمة، وفي مثل هذا الجو يصل امرؤ القيس، ويسهر

مع معشوقته ولسان حالهما أخرس لا ينطق بكلمة خوفاً
من أن تسمع الكلمات الخافتة في تلك الصحراء الهادئة
التي ليس فيها مكيفات مزرعجة، أو تلفزيونات تصرخ
بملء صوتهها، أو أجهزة إذاعة تتمشّدق بكل اللغات،
وخرير التدخلات. كان هدوء الصحراء شاملاً مطبقاً
كأنك في غرفة امتحانات شهادة من الشهادات.

وفي تلك الغرفة أو الخباء يخرج امرؤ القيس حين
تنبهه حبيبته بأن الخطر قد اقترب، وأن عليه أن يلم
سلاحه من سيف ورمح وزرد ثقيل وخناجر وسكاكين
لكي ينجو بجلده. وتضيق به الحال، ويرتجف من أعلى
رأسه إلى أخمص قدميه، ويتلعثم، ويكاد يبكي، ولكنه
لا يجد الدموع، وحبيبته تقول له: «انج بنفسك قبل أن
يأتيك بعلي فيقتلك». ونسي امرؤ القيس أن ذلك البعل
مثله في الجبن والخوف. وعندما يتذكر أنهما مثيلان
يقول لها:

أبقتلني والمشرقي مضاجعي

ومسنونة زرق كانياب أغوال

والواقع فإن رمحه بسيط عادي، ولكن في نظره
كان ذلك الرمح قد أتى من العالم الخرافي الذي فيه
الحديد أزرق، وفيه رأس الرمح المسنون أي الذي به

أسنان كثيرة، وأنه كأياب الأغوال التي لم يرها امرؤ القيس في حياته إلا ما سمعه من حكايات في الليل من جدته لأمه.

ثم ما يلبث شاعرنا الكندي أن يجمع أسلحة الدمار الشامل التي في يديه وكتفه وجسده، والمحمولة جواً على رأسه في شكل خوذة ويفر متلصصاً، كما جاء متلصصاً لينضم إلى سائر الجبناء المحبين الذين كانوا قد هرولوا مصغدين في الصحراء لتبتلعهم في ظلماتها وتعود الديار خفيفة الظل، مرحة مبهورة الأنفاس تنتظر مغامرات الليلة القادمة في سلسلات لم يعرف مثلها تلفاز العصر الحديث.

ومما لا شك فيه أن زيارات امرئ القيس كانت من أكثر الزيارات التي تحمل تفاصيل مذهلة عما يدور في مثل تلك الزيارات والمغامرات. فهو بالإضافة إلى ذكر وسائل الحيلة والحذر التي يتخذها لم ينس أن يوضح الحالات النفسية التي كان يمر بها كل من العاشقين. وتعجبنى تلك التفاصيل كثيراً لأنه يبدو فيها صادقاً، وفي نفس الوقت جذاباً في فعله وفي سرده لها. ولم يوفق بطلنا عنثرة في سرد أحداث مغامرته الغرامية التي أوضحها امرؤ القيس صراحة في أكثر من قصيدة. وتفيدنا مثل هذه المغامرات في المقارنة بين

فارس همه القتل والقتال، وترك أمور الغرام جانباً إلا ما كان منها للترفيه عن النفس، ثم المضي قُدماً في عمله الرسمي مع إبقاء حب عبلة فقط في ذاكرته ومن آخر كامرئ القيس الذي كان كما يقولون زير نساء كالمهلل. وكان ذلك هو شغله الشاغل. ويهمنا في هذه الزيارة همه الأول والأخير كما كان يفعل امرؤ القيس. ومما لا ريب فيه أن امرأ القيس كان له تأثير كبير على عمر بن أبي ربيعة. وسنبقى بعض الوقت مع امرئ القيس في زيارة له لمقارنته مع معاصره عنترة. أما ابن أبي ربيعة فستركه وشأنه هذه المرة.

فامرؤ القيس بعد أن سما إلى دار حبيبته وكأنه فقاقيع ماء قال لنا، وقد وقف أمامها في الخباء، ولم تكن تتوقعه هذه المرة:

فقلت سباك الله إنك فاضحي

ألست ترى السُّمار والناس أحوالي

فقلت يمين الله أبرح قاعدا

ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

فها هو يقسم بأنه لن يبرح قاعداً في مكانه، وسيظل كذلك. ونحن نعلم أن حذف لا بعد القسم مع

يبرح كثير في كلام العرب. ولذلك فإنه يقسم بأنه لن يبرح مكانه مهما كانت النتائج. ثم أخذ يطمئنها وهو الكذوب الفاجر، ويؤكد أن ليس في الحي من يتحدث أو يصطلي بنار من البرد:

حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ حَلْفَةً فَاجِرٍ
لَنَامُوا فَمَا إِنَّ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالٍ

وأخذ يقص عليها ما كان من أمر مجيئه، وتحدث عن شوقه وعلته، وعما قيل ويقال في حلقات الرجال، وأنساها خوفها، وقال لنا:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت
هصرْتُ بغصنٍ ذي شماريخ ميال
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا
ورضت فذلت صعبة أي إذلال

هكذا كانت ملاطفته لها: أحاديث جذابة، وأخباراً لذيدة انتهت بأن اقترب كل منهما من الآخر، وضمها إلى صدره المحاط بالزرد، ولكنها لم تشك، ووجدت فيه دفء صدره، ونبضات قلبه، فقد كانت متشوقة إليه، ومالت إليه وعليه وكأنها غصن من شماريخ النخل الذي ناء بما كان فيه من تمر فمال. وهكذا مالت صاحبه لما

في صدرها من شوق ولهفة. وفي آخر المحادثة راضت وقبّلت فمه بفعل حديثه الساحر بعد أن كانت صعبة المنال. وكان كل شيء يسير سيراً هيناً لصاحبنا المحب، فهذه المعاناة التي كانت صعبة أسلمت للشاعر نفسها، ثم إن البعل الذي كان يخاف منه امرؤ القيس في أول مغامرته، لم يلبث أن أصبح أمره هيناً. وتتعرف على تفاصيل الأحداث من هذه الآيات:

فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعليها

عليه القَتَام سيئ الظن والبال

يَغْطُ غطيط البكر شدَّ خناقُهُ

لَيَقْتَلَنِي والمرء ليس بقتال

أَيَقْتَلَنِي والمشرقي بجانبِي

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وليس بذِي رمح فيطعنني به

وليس بذِي سيف وليس بنبال

وقد علمت سلمى وإن كان بعليها

بأن الفتى يهذي وليس بفعال

فإذا كان البعل ليس بقتال، فلماذا كل هذا الخوف

منه. ولماذا يحمل المغامر المسنونة التي كأنياب الأغوال

والرجل ليس بذى رمح طويل، ولا بذى سيف أو نبل .
لا بد من أن هناك أسباباً أخرى قوية للخوف عند زيارة
الأحبة . وإننا نترك كشف تلك الأسباب للقارئ . وعلينا
أن نتذكر عند الحديث عن امرئ القيس بأنه كان
جاهلياً، وكان فصيحاً بليغاً . وكانت أعماله في كثير من
الأحيان تختلف عما أتى به الإسلام من مثل أخلاقية،
وفضائل إنسانية .

ومن بين الذين كانوا يهونون زيارات الحبيبات
أعشى قيس، وهو رجل ضعيف البصر منذ صغره .
وبدلنا على ضعف بصره هذا الاسم الذي أطلق عليه .
وكان الأعشى لا يرى إلا القليل، ولكنه مع ذلك
أدلى بدلوه في الزيارات . وكانت الفتاة التي يزورها
تدعى هريرة، أو ربما أطلق عليها هذا الاسم لإبعاد
الشبهات عنها، وكانت هذه الفتاة ثقيلة الأرداف،
بطيئة الخطو، نحيلة الخصر، مكتزة لحماً وشحماً
وهي :

غراء فرعاء مصقول عوارضها

تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

مما يدل على أنها مليئة بما لذ وطاب مما لا
يرافق عليه الطب الحديث من كولستروول وتوابعه . دعونا

تلتصص عليه - ولا أقول نتجسس حتى لا نقع فيما لا نريد. فالأعشى يقول لنا:

قالت هُريرة لما جئتُ زائرها

وئلي عليك وويلي منك يا رجل

فالمفاجأة كانت سارة للمحبة، ولكنها مخيفة تماماً لما كانت مثل هذه المفاجأة مع بقية الصويحبات اللاتي زارهن أحبائهن على غفلة من الرقباء، ووضعوهن في مأزق حرج. وكان الشعراء غير مسؤولين عما يفعلون، كما كان على الصويحبات أن يحتلن على عدم الكشف عن رعونة أصدقائهن. والواقع فإن قصر نظر الأعشى لم يتركه يتدبر الأمور من قبل فيضرب الموعد قبل الحضور. ومن يدري فلربما عَنَّ له في تلك الساعة أن يزور هُريرة التي فوجئت بظهوره وهو يدب على الأرض. ولعله كان يعرف أين يختبئ عن العيون إذ ليس هناك مكان أفضل من أن يقف خلفها فتغطيه بجسمها الفخم الضخم الذي يشبه قامة صاحبة عمرو ابن كلثوم التي كانت:

تريك إذا دخلت على خلاء

وقد أمنت عيون الكاشحين

ذراعني عَئِطَلْ أدماء بكبير
يرنُ خشاش حليهما رنيناً
ومأكمةً يضيق البابُ عنها
وكشحاً قد جننتُ به جنونا

فكلا الحبيبتين منتفخة الأرداف، صغيرة الخصر.
ومما يثير العجب أن يقدم رجل مثل الأعشى قصير
النظر على زيارة النسوة الأحرار، وتعريضهن لما لا
يليق.

وكثيراً ما كنت أعجب من المتنبي وهو يقول في
إحدى زياراته:

متى تزر قوم من تهوى زيارتها
لا يتحفوك بغير البيض والأسل

وبالطبع فإن المتنبي يجب ألا يتوقع غير ذلك، أم
ترى أنه يريد أن يقول له أهل حبيته: تفضل يا سيدي،
وزر من تهوى زيارتها، وسنقدم لك الطعام والشراب
والشريد والقهوة، بل وساندوتشات القرن العشرين. إن
المتنبي في هذه الزيارة أخطأ، وقد تعلم منها درساً
جعله ينأى بنفسه عن مثل هذه المغامرات التبعة.

وللشاعر الكاتب الفيلسوف المدقق الباحث العقاد

حديث في الزيارات . وهو أسعد حالاً من شعرائنا الذين
تحدثنا عنهم لأنه لم يقم بزيارة الحبيب، بل إن الحبيب
هو الذي فاجأه بالزيارة على ما يبدو. وكما جنت
صويحبات شعرائنا بجسارة الشعراء، كذلك جنت صاحبة
العقاد بالجنون الذي أصابه من تلك الزيارة التي كانت
على غير موعد. وقص علينا قصته:

قال:

قال لي لما عراني فرحي
بجنون أكذاك الشعراء

قلت فانظر يا حبيبي عجباً
كيف بالحب يجن العقلاء

ورأيت قد بز الأولين والآخرين في هذا المضمار.
ولا أعرف أين كان هذا اللقاء، ولكنني أعلم أنه طلب
بعض المطالب ويده ممدودة قائلاً لحبيته:

هات خديك وجيداً وفماً
طال والله بنا عهد اللقاء

أما عنتره وعن زياراته الأخرى التي ذكرها في
شعره فقد كانت غاية في الحفاظ على المثل الأخلاقية،
وكم هي تنم عن حسن معشر. فهو ليس بالفتى

الانتهازي فيما يتعلق بالنساء، ولا رغبة له في الاتصال
بهن من وراء ظهور بعولتهن فيما عدا تلك المرة التي
ذكرها في معلقته. وكانت المعلقة قد قيلت في مجال
فخر. وكان يتحدث مع أحد رفقاءه عندما أراد أن يفتخر
بأفعاله الكريمة، وسجاياه الجليلة، وبفروسيته وشجاعته.
ولم يكن عنترة من أولئك الفتية العابثين الذين يبحثون
عن العلاقات الغريبة مع نساء أحياء العرب. وكان أن
قال في إحدى المناسبات:

ما اشتمتُ أنثى نفسها في موطن
حتى أوفي مهرها مولاها
أغشى فتاة الحي عند حليلها
وإذا غزا في الجيش لا أغشاها
إني امرؤ سمح الخليفة ماجد
لا أتبع النفس اللجوج هواها

فعنترة يظهر لنا في كلماته هذه أنه لا يراود
الفتيات ابتغاء إشباع النزوات. ولكن إذ أعجبه الفتاة
دفع مهرها لولي أمرها وتزوجها. كذلك نراه يزور المرأة
المتروجة فقط عندما يكون زوجها معها في الدارة أما إذا
غاب زوجها في غزوة من الغزوات التي تقوم بها
عصابات القبيلة، فإنه يتوقف عن مثل تلك الزيارات التي

إنما كان يقوم بها صلة للرحم. أما في غياب الزوج فلا زيارة هناك بسبب سماحة أخلاقه. وكانت هذه الخلال الكريمة من أهم الأسباب التي جعلت رواة الشعر في العصر الإسلامي يقبلون على شعر عنترة، ويجدون متعة في مثله العليا التي لم يكن ليجدوها في شعر غيره من الشعراء، بل إنهم كانوا ينظمون شعراً أخلاقياً ويهدونه لعنترة فيصبح من الشعر المنحول.

